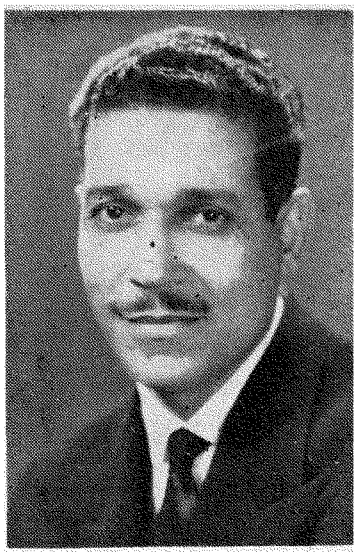

مقابلة أدبية مع : يوسف الشاروني

من خلال الوعي العميق بما اخذ يواجه حياتنا المعاصرة من تحديات ، في غضون الحرب الكبرى الثانية وأعقابها ، واتصالها المباشر وغير المباشر بالازمة الحضارية العامة التي اجتاحت العالم ، بدا يوسف الشاروني يكتب القصة القصيرة في القاهرة ، باحدث الاساليب الفنية ، ويعبر بها عن الايقاعات العصرية الجديدة .

وقد استطاع بمجاميعه القصصية الثلاث : العشاق الخمسة (مؤسسة روز اليوسف ، ١٩٥٤) ، رسالة الى امرأة (مؤسسة روز اليوسف ، ١٩٦٠) ، الزحام (دار الآداب ، ١٩٦٩) ، ان يتبوأ مكانة عالية بين كتاب القصة على مستوى الوطن العربي ، اثارت اهتمام وتقدير النقاد ، بفضل الامكانيات الفكرية والجمالية التي ينطوي عليها انتاجه .

ذلك ان قصصه تتميز بجملة خصائص ، في الشكل والبناء والمضمون ، تمنحها نكهة خاصة في ادبنا المعاصر . ومع ان كل مجموعة تنفرد بسيادة عناصر فكرية وفنية معينة ، وينتظمها رؤية غالبة ، الا انه يمكننا ان نرى فيها جميعا تدفق تيار الشعور ، والانتقالات السريعة ، والتداخل الدائم او التوازي او تعدد المستويات بين الاحداث والمواقف ، العابر منها والحاسم ، بين الواقع والحلم ، الماضي والحاضر ، الحقيقة والرمز .

ويعد هذا البناء المركب أقدر الابنية الفنية على تجسيد الحياة المركبة التي يكتب الشاروني قصصه تحت تاثيرها ، بعد تأمل قد يطول سنوات .

وفي هذا اللقاء نتعرف على المكونات المبكرة التي وجهته للادب، ونطلع على بعض افكاره في الفن والحياة .

● ما هي العوامل المختلفة التي وجهتك الى الادب ؟ ومتى بدات تعالج الكلمة ؟ وكيف اهتديت الى شكل القصة الذي تقدمه ؟

ـ لا استطيع ان اعلل تعليلا واضحا سبب اهتماماتي الادبية . كل ما اذكره اني في سني مراهقتي كنت اعجب بكبار كتابنا في ذلك الوقت امثال طه حسين وتوفيق الحكيم والعقاد والمازني ، واني كنت اهتم بدروس اللغة العربية ، وبكتابة الموضوعات الانشائية بطريقة تحوز اعجاب مدرس اللغة العربية ، حتى اني كنت احاول ان اكتب بعض الموضوعات باسلوب مسجوع .

وفي مرحلة الدراسة الثانوية كنت اكتب يوميات خاصة ، اعبر فيها عن عواطفي والاحداث اليومية التي تمر بي وانعكاساتها على نفسي ، وأنا احس انها مدرستي التعبيرية التي لا اتقيد فيها باية شروط فنية . وما نشر في كتاب «المساء الاخير» بعنوان «الحلم والتجربة» عبارة عن مختارات من هذه اليوميات التي كتبتها في مرحلة الدراسة الجامعية حول سن العشرين .

كما حاولت كتابة الشعر والقصة القصيرة والطويلة ، وكانت اغلب موضوعات الشعر والقصة القصيرة عاطفية . اما الرواية فكنت متاثرا بما اقراه من روايات الجيب من ذلك الوقت ، وكانت خليطا من الروايات البوليسية والروايات المترجمة عن كبار الادباء العالميين .

ورغم اني كنت في التوجيهية بالقسم العلمي ، فقد قررت ان ادرس الفلسفة ، لاني اعتبرت انها تمثل خريطة الفكر البشري . ولا زال هذا رأيي في الفلسفة حتى الان . ولعل الاثر الظاهر الذي تركته الفلسفة في نفسي ،رؤيتي الدلالة الكبرى في الحدث الصغير ،ومحاولة نقل هذا الى القارىء عن طريق التجربة الفنية .

وفي المرحلة الجامعية اتسعت اهتماماتي الفنية ، بحيث شملت الفنون التشكيلية والموسيقى . فتعرفت على الموسيقى الغربية ، وترك هذا اثره في اهتمامي بالشكل في العمل الفني، لان السيمفونية تتالف من حركة ثم تنويعات لهذه الحركة ، وتصنع تاريخها الخاص من ذاتها . قد تكون هناك نغمة معينة في اول السيمفونية ، تعود وتتردد في نهايتها بايقاع مختلف . ومن هنا تعلمت ان العمل الفني يمكن ايضا ان يخلق تاريخه الخاص به ، وانه يمكن لفكرة فيه او جملة ان تتردد في اوله ، ثم تعود في اخره بايحاء اخر . وهذا التشابه مع الموسيقى يمكن تسميته في القصة بالعنصر الشعري .

وبالنسبة للفن التشكيلي اثارني بشدة جويا في لوحاته التي يمثل فيها الفزع ، الى جانب اتصالي بالحركة السيريالية التي ظهرت في مصر اثناء الحرب الكبرى الثانية . وقد ترك هذا الفن التشكيلي اثره على قصصي المبكرة ، فيما اسميته تحطيم قواعد المتطور في الادب . اي التمرد على الاساليب التقليدية التي كانت تكتب بها القصة اذ ذاك ، ثم على الاسلوب الواقعي الذي كان له الرواج في القصة منذ بداية الخمسينات .

ومن هنا كان اتجاهي في كتابة القصة مختلفا للاتجاه التقليدي

والاتجاه الواقعي .

● متى بدأت تتعامل مع الكتب ؟ وما آثار قراءاتك المبكرة على انتاجك ؟

ـ بدأت اتعامل مع الكتب في وقت مبكر ، استطيع ان احدده بسن الثانية عشرة ، في اجازة الصيف ما بين الاولى الثانوية والثانية . اذكر اننا كنا نأخذ مناهج الادب العربي بعكس ما هو مقرر الان ، فنبدأ بالترتيب التاريخي ، اي من العصر الجاهلي الى العصر الحديث ، فتعلقت في هذه السن بالادب العربي ، وكانت عند والدي مكتبة تجمع بين الناحية الدينية والناحية الادبية . ومن اهم الكتب التي استوقفتني فيها كتاب «كليلة ودمنة» بسبب شكلها القصصي، من حيث انها تجري في عالم الحيوان ، وذات دلالة رمزية . وكتاب «مجاني الادب في حدائق العرب» ، وهو كتاب يضم مختارات من النوادر العربية الطريفة ومقطوعات من الشعر العربي كنت احاول ان احفظها .

ولقد لفت نظري في هذه النوادر مواقفها التي تتكرر في اكثر من صورة ، ثم تفضي الى نهاية غير متوقعة ، ولكن يرتاح اليها القارىء. وكنت اعتقد في ذلك الوقت ان هذه النوادر قد وقعت بالفعل لاناس حقيقيين بفضل اسلوب تقديمها للقارىء . وقد انعكست هذه القراءة في محاولتي لصياغة النادرة العربية باسلوب معاصر ، فيما اطلقت عليه «قصص في دقائق ، اذ كانت هذه محاولة لربط القصة العربية الحديثة بجذورها القديمة عن طريق استلهام النادرة العربية .

كما انه كان من بين هذه الكتب في مكتبة ابي ما كان مترجما عن الانجليزية ، مثل كتاب «سياحة الحاج» لجون بونيان ، الذي كتبه في القرن السابع عشر الميلادي ، وفيه يقص قصة سياحة المؤمن في عالم الظلام من اجل الوصول الى المدينة السماوية ، حتى يعبر نهر النسيان ، ثم تلحق به زوجته وأولاده في الجزء الثاني من الكتاب.

وقد الحت عليّ فكرة السياحة ، وما يبذل فيها من مجهود من اجل الوصول الى الهدف في كل من قصصي ودراساتي . ففي قصصي هناك بعض الشخصيات التي تحاول ان تتجاوز العقبات ، وتتغلب على المغريات ، بالحب او الذكاء او الايمان ، في سبيل الوصول الى هدفها ، وهو هدف تواضع في العصر الحديث حتى اصبح يتصل بمطالب الحياة الضرورية .

وفي السنوات التالية استطعت ان اقرأ ـ كما ذكرت ـ ما كان يسمى سلسلة روايات الجيب ، وهي تتراوح بين روايات بوليسية وروايات بأقلام كبار الكتاب العالميين مثل : تولستوي ، ديستويفسكي، هول كين ، رايدر هاجرد ، موريس لابلان . وكنت ادون في مفكرة صغيرة اسم كل كتاب اقرأه وعدد صفحاته ، حتى اعرف حصيلة ما قرأت في نهاية الاجازة الصيفية ، واذكر انها وصلت في احدى هذه الاجازات الى ٨٠ كتابا .

وقبل دخول الجامعة بدأت اقرأ عن طريق المكتبات العامة لكتابنا العرب المعاصرين ، منهم غير من ذكرت : جبران ، ميخائيل نعيمه ، سلامه موسى ، حسين هيكل ، حسين عفيف ، وترجمات في «المقتطف» من شعر طاغور . كما كنت اقرأ في هذه المجلة المقالات العلمية التي كان يكتبها في المقدمة فؤاد صروف عن التركيب الذري ، ونظرية الكوانتم .

● ما هي الظروف السياسية والثقافية التي بدأت الكتابة في ظلها ؟ وعلى اي اساس اخترت اشكالك الادبية ؟

ـ كانت فترة دراستي الجامعية هي نفس فترة الحرب العالمية الثانية من ٤١ـ٤٥ سنة تخرجي من الجامعة هي نفس السنة التي انتهت فيها الحرب ، وهي نفس السنة التي بدأت اتأهب فيها للكتابة والنشر . وجدت نفسي اواجه عالما يتنفس الصعداء بانتهاء الحرب ، ولكنه ينوء بعبء مشاكل ما بعد الحرب . وكانت مشكلة مصر بالذات هي انها كانت تحلم بالاستقلال بعد هذه الحرب ، كما كانت تحلم به بعد الحرب العالمية الاولى ، مع تغير الظروف . ولهذا فقد كانت فترة غليان سياسي واجتماعي معا .

كما انه في اثناء الحرب الثانية حجبت الثقافة الاوربية عن مصر لعدم تيسر وصولها . فما ان انتهت هذه الحرب حتى تدفقت على مصر الثقافات والاتجاهات الفنية، التي تخمرت في اوربا وقت الحرب، من اكثر من طريق ، كالكتب ، والبعثات، والاساتذة الاجانب الموفدين. وكانت مجلة «الكاتب المصري» التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية ورئس تحريرها الدكتور طه حسين احد المنابر العالية لتقديم هذه الالوان الجديدة ، فقرأنا مقالات طه حسين عن سارتر ، كامي ، كافكا ، ريتشارد رايت ، وغيرهم من الكتاب المعاصرين في ذلك الوقت، مما دفعنا الى ان نقرأهم في كتبهم الاصلية .

لقد احسست في ذلك الوقت بمدى تشابك العالم واضطرابه، وسهولة المواصلات الحديثة بين اجزائه ، وما يضطرم فيه من قلاقل وتمرد وثورات ، وأن اللحظة الزمنية الواحدة تضم اكثر من تناقض ، وأن عليّ كفنان ان اقدم ذلك كله من خلال العمل الفني ، بحيث انقله الى وعي القارىء كما هو في وعيي .

ومن هنا جاء ادراكي بان الشكل التقليدي يضيق عن استيعاب هذا المضمون المتفجر . وبرغم هذا الفوران العام كانت اعمالي الفنية تنطوي على بصيص من التفاؤل .

وقد تعجب ان تكتب هذه القصص التي جمعتها في «العشاق الخمسة» ونشرت من قبل في مجلة «الاديب» البيروتية تحت عنوان «من ايام الرعب» .. في نفس الوقت الذي كتبت فيه «المساء الاخير» باسلوبه الرومانسي ، ومعنى هذا ان الفنان او الاديب يمكن ان يكتب باسلوبين في وقت واحد ، كل منهما يعبر عن جانب من جوانبه النفسية والابداعية .

وقد مارست اكثر من شكل ادبي ، محاولا الافلات من تكرار نفسي في اتجاه ادبي واحد . وكنت احس دائما كانني في معمل ، وعليّ ان اجرب جميع الاشكال الفنية ، لاني اعتقد ان الخلق يتم دائما في الشكل كما يتم في المضمون ، وأن على الفنان ان يقدم جديدا دائما في كل عمل فني ، ليس بالنسبة لغيره فقط من الكتاب، بل وبالنسبة لنفسه ايضا .

● ما اثر انتمائك للطبقة الوسطى على كتاباتك ؟ وكيف ترى هذه الطبقة ؟

ـ هذا الاثر انعكس في الشخصيات التي اكتب عنها ، فمعظمها من هذه الطبقة المتوسطة التي انتمي اليها ، حيث انني قليل المغامرة في تناول الشخصيات التي تنتمي الى طبقات اخرى لم اعايشها ، مثل الطبقة الارستقراطية القديمة او الطبقات الشعبية . وربما كان الاستثناء الوحيد الشخصيات الريفية ، وذلك بسبب معايشتي للريف اثناء فترة الطفولة .

هذه الطبقة طبقة محافظة ، تحرص على ان تأخذ اكثر مما تعطي، تتطلع الى اعلى ، وتخشى ان تنحدر الى اسفل . لا تحب المغامرة،

وتخشى الفضائح ، وتتستر على ما يقع فيها .

ولكن هذه الطبقة نفسها تحتوي على عناصر جريئة تتمرد على الاوضاع التقليدية ، بحيث تشارك في تطوير المجتمع والحياة .

وربما كانت في نهاية التحليل تحتوي على عنصرين يبدوان متناقضين ، ولكن في الواقع يكمل كل منهما الاخر ، وهما : عنصر المحافظة على جوهر المجتمع ، عنصر تجديد هذا المجتمع بما يتناسب مع روح العصر .

● علام تبحث شخصيات قصصك ؟ وهل تحقق اهدافها التي تسعى اليها ؟

ـ شخصياتي تبحث عن الطمأنينة ، ولا تنشد الا الطمأنينة ، ويبدو ان هذا هو اعسر طلب في العصر الحاضر . والقاعدة ان تكون الشخصيات قلقة ارقة ، تثقل كاهلها ضغوط تنوء بعبئها ، مادية ونفسية وفكرية . ذلك ان الفرد دائما اضعف من المجتمع ، وتتمثل كل محاولاته في ان يجد لقدمه مكانا في هذا العالم .

ومن هنا ربما بدا الجو الكابوسي الذي يسيطر على كثير من شخصيات قصصي ، حيث تفتقد الطمأنينة ، وتخشى الضياع ، وتكافح كفاحا مريرا من اجل مطالب الحياة البسيطة ، كالحب ، والعمل ، والسكن .

ومع انهم لا يصلون الى تحقيق اهدافهم ، فان لهم من الحيوية والطاقة ما يجعلهم يواصلون الكفاح .

وهذا يعني ان الحياة طريق للمضي وليست نهاية .

● كيف ترى الحياة ؟ ومن هم الابطال في قصص مثل : الزحام، الوباء ، القيظ ؟

ـ ما دامت البشرية لم تتوقف عن محاولات التوصل الى حلول افضل لمشكلاتها ، فهناك دائما امل . وهو موجود في كثير من قصصي. ومثل الطبيعة التي تحتوي الليل والنهار ، والشتاء والصيف ، الحياة والموت ، تحتوي المدينة الخير والشر . واعتقد ان التقدم البشري ثبت انه دائما تقدم متواز في الخير والشر . اما ابطال قصص «الزحام»، «الوباء» ، «القيظ» فاعتقد ان البطل الحقيقي فيها هو الجو العام الذي تصوره القصة ، ولا تهدف الحوادث والشخصيات والاسلوب الا ابراز هذا الجو ، الذي يمكن اعتباره مضمون القصة في حد ذاته.

● على ضوء تجربتك الادبية الخصبة ، ارجو ان تحدد للقراء دافعك للكتابة ؟

ـ اعتقد ان كل ادب جيد لا بد ان يكون دافعه احتجاج من نوع ما . باستمرار ، مهما بلغت البشرية من تقدم ، فهناك اوضاع اكثر تقدما . وما يكون كماليا اليوم يصبح ضروريا غدا . ومهمة الكاتب ان يطالب دائما بما هو افضل . فالرغبة البشرية في التحسن او التقدم لا تنتهي . وهذا هو الدافع الاساسي فيما اعتقد لكتابتي ، واعتقد انه هو نفسه بالنسبة للاخرين ايضا .

ومعنى هذا ان الادب بوجه عام صوت احتجاج شخصي او اجتماعي ، ولو ان الادب الجيد هو الذي يستطيع ان يحيل الشخصي الى انساني . فقد يكون الدافع للكتابة هو هزيمة عاطفية ، كما انه قد يكون تخلفا حضاريا . والهدف من ذلك رفع صوت المهموم ، املا في تجاوز الهزيمة .

القاهرة

اجرى المقابلة

نبيل فرج

المجنونة

من يحكي عنها وسط ضجيج النار ؟
من ينكأ جرح الصمت اذا ما ثار ؟
ويلم شتات الكلمات المخزونه
حين تسف رمال اليأس الملعونه ؟

• • •

نظرت في عين الشمس وقالت : مرآتي
ابصر فيها لوني وظلالي
اسمع من شفتيها موالي
احجبها عمن اعينهم تبصر
ارض أستاري الوردية فوق المرآه
فأنا وحدي من يملك ان ينظر في عين الشمس

• • •

نظرت في عين الشمس وقالت :
من يشبهني ؟
أستل سيوف الريح
أمرق في جوف الليل بأرديتي السحريه
أصقل مرآتي يزهو فيها رسمي

• • •

ثملت بالخمرة حين الفجر أطل ..
رقصت في الرحبة المصقوله ..
دارت في فلك مهجور
زرعت نرجسها حول المرآه
عبدته حين نما وأطلت
فاذا نرسيس يطل ..

• • •

بسطت عين الشمس ذراع النور
فوق رحاب العالم
لكن صاحت تلك المجنونه :
فلتفقأ عين الشمس
تلك المرآة الخائنة الشوهاء
وليقتل فيها كل ضياء
فأنا وحدي من يملك ان ينظر في عين الشمس

• • •

من يعرف ماذا بعد جنون المجنونه
فلينكأ جرح الصمت
ويلم شتات الكلمات المحزونه
وليتكلم وسط ضجيج النار .

القاهرة

وفاء وجدي